تطورات الروح الوطنية
في مراكش

(من المقالات التي كان سعيد حجي يراسل بها الصحف والمجلات في المشرق العربي)

الثلاثاء 6 رمضان عام 1351 الموافق 3 يناير سنة 1933

1

منذ تولت الإدارة الحكم في بلادنا وهى تتمتع بسيادة واستقلال قل نظيرهما بين الأمم المجاورة؛ ولقد تطورت مدنيتنا وحضارتنا في ألف ومائتى سنة تطورات يصعب تحديدها، وكان بين دولتنا والدولة العربية في الأندلس والدولة العربية في مصر أو آسيا الصغرى تنافس كبير في سائر مرافق الحياة سواء الأدبية أو العلمية أو الحربية، ورغما من تغلب الأتراك الذين نسبوا لأنفسهم الخلافة على سائر البلدان الإسلامية فإنهم لم يستطيعوا السيطرة على بلادنا التي كانت أقوى دولة في افريقيا الشمالية، بل أقوى دولة على ضفة البحر المتوسط؛ ولقد تغلبت دولتنا على سائر ما يهزم غيرنا، وبقيت محافظة على شبابها وحيويتها إلى أوائل القرن السابع عشر عندما برزت هذه المدنية الأوربية وأخذت تنشر أشعتها على العالم؛ منذ ذلك القرن بدأ الضعف يتمكن من دولتنا رغم ما نراه في بعض الفترات من قوى حافزة لمسايرة العصر والتطور معه، لكن تلك النهضات لم يكن مصدرها نتيجة مصادفة عنيفة تهيب بأفراد الشعب أن يحافظوا على وجودهم في الصراع البشري بل كانت رغبات تدور في خلد زعماء وملوك.

بقينا مستسلمين لما يصيب حياتنا من ضعف وخمول، نتكاسل عن تجديد قوانا رغما عن

تلك الظروف المساعدة لنا، وأخيرا عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء للنظر في أحوالنا، وبذلك أتيح للأجانب التدخل في بلادنا بصورة فعلية أو مباشرة، ثم اضطرب الأمن في البلاد لأسباب قد يطول شرحها أهمها ولا ريب تلك التدابير الأجنبية لإثارة الفتن لأجل استغلال الفرص. وأخيرا، في سنة 1912 ، عقدت الحماية الفرنسية على المغرب، فقضت القضاء المبرم اليوم على استقلال البلاد.

2

لسنا بصدد إيضاح العوامل التي أحاطت بإمضاء الملك المراكشي على عقد الحماية وكيف حاصره الجند الافرنسي وهو في قصره بفاس. بل الذي يهمنا دراسته هى الروح الدفينة التي كانت تسود الموقف. لقد كانت هناك جمعيات سرية تسعى لمآرب مختلفة، فقد خدع فريق من أبناء البلاد وفكروا بمساعدة يد أجنبية أن يثوروا ضد الحكم السائد قبل الحماية، كما أن فريقا من أبناء الوطن أدرك تلك التدابير والموعز بها فقاومها أشد مقاومة ولكن لم يوفق كما ينبغي. والخلاصة التي تهمنا من ذلك الآن هو تلك الروح الوطنية التي تمكنت من فريق من أبناء البلاد الوطنيين وعملهم في الحقل الوطني، فكادت أعمالهم أن تكلل بالنجاح. فلو أتيح لتلك الروح زعيم فذ كعبد الكريم لرأينا الأحوال غير ما هى عليه. فإن الظروف هى المساعد الأكبر للمستعمر أو العامل على امتلاك البلاد بتلك السرعة التي جعلت قائد الحماية الفرنسية أن يصرح أن الفرنسيين كانوا يتصورون أن احتلالهم للبلاد لا يتم إلا بعد ثلاثين سنة فإذا به قد تم في ثلاثة أيام.

ومعنى ذلك أن الفرنسيين الذين كانت جواسيسهم مبثوثة في أطراف البلاد كانوا يدركون المصاعب الجسيمة وروح الوطنية والمقاومة في المغاربة عند المصادمة مع الأمة المراكشية ونشر حمايتهم عليها، فاعترفوا للظروف بمساعدتها وللخائنين من أبناء البلاد بمعوتهم التي جازوهم عليها فيما بعد.

3

وبعد نشر الحماية لم تفتر تلك الجماعة الوطنية عن العمل لمعاكسة الأجنبي ومنع تدخله، لكن ينبغي أن نعترف أن ذلك لم يكن بطرق علمية توافق العصر وأحواله، فإن الأجنبي سرعان ما قضى عليهم بوسائل مختلفة، فضعيف الإيمان الوطني كان نصيبه مالا أو وظيفة، وقويه شرد وصودر.

ولم يدم الحال طويلا حتى تقلد السلطة الأجنبية فرد لا شك أن أمته مدينة له بحمايتها أو استعمارها للمغرب، ذلك هو السياسي المحنك « ليوطي » ، فلقد أدرك بثاقب فكره أن أغلب الذين يتزعمون من أبناء البلاد بعد الحماية هم طائفة ليس من شأنها أن تهتم بمصالحها الفردية، كما أدرك أن الشعب محتاج إلى المواساة عن استقلاله المفقود وتحكم الغير فيه فاضطر إلى سياسة التحبب والمخادعة التي لم يبرع فيها سواه، والتي يشهد له كل مغربي بإتقانها ونبوغ فيها.

4

لم يدم الحال طويلا حتى نشبت الحرب العالمية واضطرت فرنسا إلى سحب جنودها من بلادنا.

ولقد تنفس المغاربة لدى نشوب الحرب الصعداء وتصوروا قرب الخلاص بما أصيبوا به، مقتنعين أن النصر يكون في جانب حليفتهم ومؤيدة استقلالهم « المانيا » فكانوا مهتمين بهذه الحرب متتبعين لأخبارها وحوادثها لا يأخذهم شك في انهزام الأجنبي الدخيل عليهم، ورغما عما أبداه ذلك المرشال من مكر ودهاء بحفلاته المغربية ولباقته النادرة لم يستمل إليه مغربيا واحدا بينما كانت المدن تحاصر من جانب الجرمانيين وتدخل في حوزتهم؛ كانت هناك حفلات تقوم بها السلطة ببلادنا احتفالا بدخولها « المزعوم » برلين، وبينما فرت حكومة باريز إلى بوردو كانت هناك خطب تلقى على عموم أفراد

الشعب من ليوطي يبتسم فيها ويذكر القوم باستقلالهم وعزتهم بعد انتهاء الحرب وانتصار أمته.

هكذا دامت الحرب وهكذا دامت أيامها (الزهراء) في بلادنا، ونحن لم نقتنع بصدق ما يصوره لنا ليوطي، وإنما نتلهى بذلك منتظرين الحاج (غليوم) .

ولقد كان الوطنيون يفكرون في العمل لاغتنام فرصة الحرب لولا أن السلطة أحكمت كل محاولاتها، وأدركت خطورة موقفها، فبادرت إل اتخاذ كل الوسائل التي من شأنها القضاء على محاولات الوطنيين.

5

قانتهت الحرب وأى مغربي لم يصدق بهزيمة الألمان، أو التفت إلى البلاغات التي أذيعت عن انتصارات الحلفاء، والحقيقة أن قليلا من الأفراد هم الذين أدركوا الموقف وخسران الألمان في الحرب وفوز فرنسا في حربها التي أعلنتها على ألمانيا.

انتظر المغاربة تحقيق مطالبهم التي كان ليوطي يرددها أثناء الحرب، لكن اتضح لهم أن ما صرح به ذلك المشير لم تكن إلا وعودا خلابة براقة أغوتهم مدة فأضاعوا الفرصة السنحة لتحقيق ما ينشدونه من استقلال وعزة، فاستاؤوا من الحالة ونقموا على الدخيل إذ أنه لم ينتظر مرور سنوات على الحرب بل بادر بعد انتهائها إلى البدء بتنفيذ خطته، فأصدر عدة مراسيم لجباية الضرائب الباهظة، لكنه لم ينفذها في سائر البلدان المغربية دفعة واحدة، بل بدأ في تنفيذ ذلك بالعاصمة الرباطية، فاحتجت المدينة من فداحة الضرائب، واجتمعت الوفود الغفيرة حيث أحاطت بالقصر السلطاني محتجة على تلك الضرائب، فبادرت السلطة إلى تخدير الأعصاب، واهتمت بالأمر ظاهريا ولم تخمد الحركة حتى أمرت بنفي زعماء الحركة، فكانت هى أول مصادمة بين الأهالي وبين السلطة.

وبعد ذلك كانت الحرب الكمالية وانتصارات الأتراك في حربهم مع اليونان فتحمس

المغاربة تحمسا زائدا لمصطفى كمال باشا، وعزموا على إعانته فصدمتهم السلطة في عزمهم، وهكذا زال كل حلم نحو عدالة الفرنسيين من قلوب المغاربة، تلك العدالة التي لم يكونوا ليتصوروا وجودها أو تخيلها لولا تلك التصريحات التي صدرت من رجال الحماية أثناء الحرب فخدرت أعصابهم واستسلموا لتوهمها.

6

لقد عم التذمر بين الأهالي بعد انتهاء الحرب العالمية وتغيرت السياسة الفرنسية نحوهم تغيرا ظاهرا إذ أنها أرادت أن تخدع النفس المغربية بإرهابها وإظهار القوة المادية التي يتوفر عليها الأجنبي، فأثرت تلك السياسة على كثير من النفوس الخانعة البسيطة، بينما ازدادت في لهيب الروح الوطنية شعلة، فكان هذا التذمر من جانب الأهالي الخاضعين للحكم الفرنسي يتسرب طبعا إلى الجماعات أو القسم المغربي الآخر الذي لم يكن قد مهد أمام رجال الحماية، وسرعان ما فكر زعماء هذا القسم في مصير وطنهم وأدركوا تلك المخادعة التي مرت على إخوانهم الوطنيين الخاضعين لقوة العدو ولمسوا ما يصيبهم من إرهاق وعسف وصمموا عل الجهاد لتحرير البلاد.

ولسنا نذيع سرا إذا قلنا إن حبل الاتصال كان قويا بين هذين الجانبين وإن هناك معونات أدبية ومادية قام بها الطرف الخاضع لسلطة الحامي لتعزيز حركة المجاهدين سوف يكشف الزمان عنها اللثام، فكان كل واقعة حربية بين السلطة الأجنبية والمجاهدين يرن صداها في أنحاء البلاد، ويتهافت كل مغربي على تتبع الحوادث باهتمام كبير وتحمس زائد، وبعد ذلك ترأس المجاهدين شخصية لم ينجبها الوطن المغربي منذ سنين.

7

لقد أثرت الحرب الاستقلالية الريفية على النفسية المغربية من ناحيتين:

الأولى: من ناحية قيمتها - والثانية : من ناحية قوتها.

ويلمس ذلك جليا من المقارنة بين حالة المغرب قبل تلك الحرب وبعدها، فلقد كادت أن تستسلم النفوس بعض الاستسلام لسيطرة الأجنبي الذي صمم على استغلال ذلك الاستسلام لمصلحته، لكن الحرب المغربية الاستقلالية أشعلت فيه روحا وطنية وصورت له أن ذلك الأجنبي مهما يكن قويا بجنوده ومعداته وأساطيله لن يقوى أمام جهاد الإيمان والحق. فإذا لم تنجح الحرب الريفية المغربية في ختامها فقد استفادت الروح المغربية منها إذ أنها فتحت بابا في تاريخ تطورات الروح القومية ببلادنا.

لقد تابعت بلادنا باهتمام قل نظيره حوادث تلك الحرب، وهذا طبيعي لا ريب فيه، لكن الذي ليس بالطبيعي هو عدم قيام المغرب إذاك بثورات هائلة ضد الأجنبي.

فقد نتساءل عن السر في ذلك مقتنعين أن تاريخنا القومي يبرأ من هذا الذل وذلك الخمود الذي ساد أوساطنا فلم نبادر إلى اغتنام الفرصة في تلك الحرب الوطنية والتنصل بقوة السيف من تلك السيطرة الأجنبية الغاشمة. في تلك الأيام الرهيبة لا معنى لكى يقتصر الوطني على تأوهات وانتظار وصول المجاهدين وتغلبهم على السلطة أو التحدث بذلك والافتخار به، بل الواجب الوطني يقضي إذاك بحمل السلاح. فواحسرتاه على فرصة لم نبادر إلى اغتنامها فيقال عنا كلمة صحيحة « إن تاريخنا القومي يعيد نفسه » .

8

باتنهاء تلك الحرب الوطنية انتهى دور الجهاد المسلح وحل الجهاد السلمي الذي من شأنه أن يكون لكل فرد من أمتنا شعورا ويكون له نبراسا نهتدي به في ملمات وطننا.

بادر الفرنسيون وهم الذين أدركوا ما في النفس المغربية من صرامة واعتداد بوطنها إلى التفكير ودرس الوسائل التي من شأنها القضاء على تلك الروح المضطربة الهائجة التي خلقتها الحرب الوطنية، فقرروا وعلى رأسهم المقيم العام « ستيغ » أن أقرب وسيلة لرهبة

المغاربة هى القوة والعنف؛ فكان للمغربي منهما نصيب كبير لم يزده إلا تذمرا وحقدا على المستعمرين. ثم تابعوا درس سياستهم (الإدماجية) وكان من نتائج هذا الدرس تلك المسألة التي تسمى بالقضية البربرية التي فكروا فيها من قديم وصمموا على تنفيذها بصورة غير معقولة في القرن العشرين.

ظلت الهاوية بين السلطة والأهالي تتسع وتعمق، والتذمر يعم سائر الأفراد نظرا لجسور المستبدين وضغطهم العجيب، فأخذ الكل يتبرم من هذه السياسة ولم يبق إلا الانفجار أو الانتقام، فلم تكن لتجدي طلبات الأهالي للحكومة، بل لقد كانت السلطة - وما زالت - تعاكس الأهالي في كل محاولة يراد بها تخفيف مصائبها لتظهر قوتها وبطشها، وسلطة المستعمر من شأنها أن تمعن في طغيانها كلما رأت استسلاما ظاهريا من أفراد الشعب المستعمر. فضغط على الحريات، وجور شنيع يصاب به الفلاحون، وظلم سيء يراد به إماتة الإحساس، وأخيرا تجزئة البلاد وإخراجها من حظيرة الإسلام والعروبة وإدخالها تحت لواء مثلث الألوان ودين صليبي.

9

هذا ما لا يطاق والوطنية.

لن يطيقه من يشعر بكرامته وأى مغربي لا يشعر من صميم فؤاده بهذه الكرامة التي لولاها لاستطاع المستعمر أن يدمجه في كيانه.

فحذار أيتها الأمة المغربية بما يراد بك فإنه أسوأ الأسوأ. وانفضي عنك غبار هذا السكوت ليشعر الافرنسي بوجودك؛ لقد كانت القضية البربرية سببا مباشرا لما نراه الآن في مجموع الأمة من حركة ويقظة، كانت سببا في ذلك لأنها أماطت اللثام عما لم يكن مسطورا إلا في الأوراق؛ فلم نكن لنتصور أن ما في السطور يبرز إلى حيز التنفيذ، وأن الفرنسيين لم يتورعوا في وصولهم لغايتهم الاستعمارية الكبرى من اتخاذ الوسائل التي من شأنها أن

تحط بمقامهم في العالم الدولي. لقد برهن المغاربة على أنهم لن يستسيغوا الفكرة مهما بذل في شأنها وأظهروا امتعاضهم الشديد منها بوجه عام يعبر لا عن الأغلبية فقط بل يعبر عن فكرة كل مغربي، فليس هناك من يجسر عن الرضا عنها. لكن هل تقتنع السلطة الافرنسية بخطئها وتتراجع عن خططها، نظرا لما أظهره المغاربة من احتجاج وسخط على الفكرة؟

هذا ما لا نظنه.

لا ينبغي أن نخدع أنفسنا ونتصور أن هذه الفكرة التي مهدت السلطة لها منذ سنين عديدة، ودرستها من سائر نواحيها، سوف تحيد عنها بمجرد ما أظهره الشعب المغربي من تبرم ومقاومة. والحقيقة التي لا غبار عليها أن تلك السلطة لن ترجع عن فكرتها إلا إذا رأت تيقظا تاما من الشعب واهتماما كبيرا بالمسألة، واحتجاجا وصراخا ومقاومة من المغاربة كلما ظهرت لهم خطة في سبيل تنفيذ الفكرة البربرية.

10

فاتجاهنا الذي ترمي إليه روحنا الوطنية وتسعى وراءه هو المحافظة التامةعلى دولتنا المغربية متمتعة بحقوقها المقدسة ومعيدة تاريخها الزاهر؛ فكل مغربي مفكر يدرك هذه المسؤولية الملقاة على عاتقه ومستعد للتضحية التامة في سبيل هذا المبدإ المغربي.

ونظرة واحدة على صفحة من تاريخنا القومي تنير لنا سبيل العمل والجهاد في المستقبل وتفتح أمام المتشائمين بابا واسعا للتفاؤل بل وللأمل الوطيد في ازدهار حياة أمتنا في المستقبل واستقلالها المنشود. كما أن نظرة واحدة أيضا على تطور الروح الوطنية منذ سنتين أو ثلاث من أبناء المغرب تفيدنا باستعداد فطري يحفزنا إلى الجهاد الوطني، وان أمتنا متبرمة وليس في استطاعتها أن تتحمل أكثر من هذا وانه لا ينفعها إلا المفكرون العالمون والوطنيون المضحون والزعماء المديرون. فلنسر على بركة الله.